الفصـل الثالث

مهري غال

طافت وسحر على عدد من المطابع التي قرأت عناوينها فـي دليـل التلفون لعلها توفق الى طريقة يلتزم بها أحد الناشرين ببعض التكـاليف وهي بالبعض الآخر، فلم تجد الى ذلك سبيلا. فالمطابع هزيلة والناشرون فقراء وما معها لا يكفي الا لطبع جزء من الرواية. كم كانت جاهلة فـي شؤون المال! وقالت لأختها وهي تسير واهية القوى تكـاد تتـرنح مـن التعب وتلفظ أنفاسها:

-انني أفهم أن من واجب الأديب أن يكتب، ويكتب شيئا جيدا فيجـد الأبواب مفتوحة لديه، يجد الناقد الذي يركن اليه، ويجد الدور التي تحمل عنه عبء النشر والتوزيع. أما أن يطوف بأدبه كما يطوف دلال بسلعته، وأما أن يهرق السنوات من عمره ليكفل أمره، وأما أن يختنق أدبه فـي ظلام الأدراج فهذا ما لم يخطر لي على بال. ان معنـى هـذا أن أبنـاء الشعب لا يمكن لهم أن يكتبوا. ان معنى هذا أن صوت الشعب لا يمكـن له أن يسمع! أما المرتاحون الذين يملكون القدرة على النشر فليس عندهم ما يكتبونه، لا المعاناة ولا الإحتجاج، ولا الرغبة في تغييـر الظـروف الإجتماعية.

تريثتا عند موقف الباص في ساحة النصر، واذا بها تفاجأ بأحمد على الرصيف المقابل، وشاهدها فالتمع وجهـه وقطـع الطريـق المـزدحم بالسيارات على عجل، وهمست مها لأختها وعيناها عالقتان به:

-هاهو!

رحب بها وبأختها بتلك اللهفة التي تحببه الى القلـوب لأول وهلـة، وسألها عن وجهتها، فحدثته بسوء طالعها فقال:

-وعدتني بالاطلاع عليها. لا تطبعي شيئا دون أن تطلعيني عليه. ان ما ينشر يصبح ملك الناس ولا يمكن للإنسان أن يستعيده، وقد يندم عليه ولكن بعد فوات الأوان.

وناولته اياها قائلة:

-هاكها. لقد مللت منها ومن طبعها.

كان الوقت عند الأصيل ولم يحن بعد موعد لقائهما كما اتفقـا فـي الليلة السابقة. وكانت مها تلتهف للقائه وحدها، ولكن أحمد دعاهما لتناول بعض المرطبات، وأخذ يسأل سحر عن دراستها ونـشاطها والمواضـيع التي تحبها. وانطلقت الفتاة الخجولة تجيبـه دون أن يعتريهـا الارتبـاك كعادتها مع الغرباء، وابتسمت مها وقالـت لنفـسها "مـن الأفـضل أن لاتسيطر العاطفة على لقائنا. سأكون أعمق فهما له في إطار اجتماعي".

قال لها ضاحكا وهم يجلسون في المكان المعتاد خلف الجناح علـى الرابية المشرفة:

-لنكن صريحين. كم تريدين مهرا؟

وبوغتت مها بالرغم أنه كان يمزج الجد بالهزل، ولكنها لم تلبث أن قالت مبتسمة وهي تحدق اليه النظر:

-ان مهري غال جدا، فلا يمكن للزوج أن يقدر زوجته حق قـدرها الا بمهر غال.

وبان في وجهه القلق ولكن ابتسامته الرحبة لم تفارق شفتيه:

-انني أقدم ما تريدين.

-حتى لو طلبت مهرا معجزا؟

-لست أرفض لك طلبا.

وضحكت مها وقالت:

-مهري ضمير نقي صادق. وأنا واثقة أنك تملكه.

ونظر اليها أحمد وفي عينيه دفقة السعادة والحـب، وتنـاول يـدها وضمها برفق بين يديه ثم ضغطها بامتنان.

-المرأة حين تتزوج تسلم نفسها الى ضـمير الرجـل. ان ضـمانها الوحيد أن يكون ذا ضمير نقي، وكل ما عدا ذلك وهم من الأوهام.

وسألها باسما بلهجته السابقة الجادة الهازلة:

-والمؤخر؟

-لاتهن حبنا. لو فشل زواجنا لن أجد في الدنيا ما يعوضني عن ألمي وخيبة أملي.

-ولكن هذه أمور تقليدية طبيعية جدا.

-أي شيء يمكنني أن أهبك اياه ولا تهبني اياه بالمقابل؟ انني أخجل أن تذكر هذه الأمور وأشعر كأنما أباع في صفقة. كيـف تنـسجم هـذه الأمور مع حريتي في الإختيار؟

كان يتأملها في مزيج من الدهشة والإعجاب، ثم أوضح قائلا:

-لماذا أخفي عنك؟. انني لا أملك شيئا يامها. من عادتي أن أنفق كل ما معي، وأتألم لأنني لم أفكر بمثل هذا اليوم. فالزواج بناء ولا يـستطيع الإنسان أن يتزوج في الشارع. نحن بحاجة الى سكن وأثاث وكل مايجعل حياتينا سهلة على الأقل ولا أقول مرفهة.

وضحكت مها:

-انني اذن أكثر ثراء منك. معي ألف ليرة.

وحدثته كيف أخفت أمرها العام الماضي لنـشر الكتـاب، وضـحكا طويلا، ثم نظر اليها نظرة طويلة ملتهفة:

-متى تحبين أن نتزوج؟

-ماذا ترى أنت؟

-أترك الأمر لك.

-بعد عام أجهز فيه نفسي وتكون أنت قد جهزت الأثاث الضروري للبيت.

نظر اليها معاتبا وقال:

-أتحبين أن نضيع عاما من عمرنا؟ عاما طويلا باثني عشر شهرا، أي بثلاثمائة وخمس وستين يوما!. حرام، كيف تطلبين منـي أن أنتظـر هذا الدهر الطويل!

ولمست لهجته المخلصة أعماق قلبها، وأحست بدفقة ساخنة تغمرهـا وتخضل عينيها وهي تتخيل كم ستكون سعادتها قربه وقالت "كما تحـب" فضغط يدها التي كان يحتويها بين يديه. ما أحمقها وهـي تبحـث عـن السعادة في لباس وأثاث!. ما أحمقها وهي تطيل أمد الخطوبـة فتـسمح للنوايا السيئة أن تحفر أخاديد بينها وبينه! ان الخطوبة الطويلة كثيرا مـا كانت مرتعا للطفيليات تنخر فيها الحياة، وستكون بعيدة عنـه، معرضـة علاقتهما الطفلة للمؤثرات المثبطة.

هكذا كانت تحدث نفسها وهو ينظر في عينيها يحاول أن يستشف ما يدور في خلدها.

-ستشترين الأثاث بنفسك مع الأيام بما يلائم ذوقك. عندي في الوقت الحاضر غرفة نوم جاهزة في بيت أهلـي ويمكننـي اسـتعارة بعـض

الحاجات الضرورية لنا. المهم أن أجد سكنا مناسبا. وفي الوقـت الـذي أستأجر فيه بيتا أبرق اليك بحضوري.

-كما تحب.

كانت سحر تتشاغل عنهما بالنظر الى الأسهم النارية ولكنها تـسمع حديثهما بوضوح وتبتسم، فشد ضفيرتها معابثا وقال ضاحكا:

-لست أنا. انها أختك.

وضحكوا جميعا فأردف قائلا:

-اشهدي ياسحر! سألتني أختك عن عيوبي فقلت لها بأن لي عينا لا أرى بها جيدا وأذنا لا أسمع بها جيدا، وأن الصلع بدأ يزحف الى رأسي ولكنها بالرغم من كل هذا تريد أن تتزوج بي.

على طريق الغوطة المشجر كانت السيارة التي استعارها من صديقه تطوف على مهل في جنان دمشق. وكانت مها تتأمل الخمـر الخـضراء المذهبة بالشعاع وقلبها يتلقى في غبطة فيض الجمال. وحدثها عن تاريخ الغوطة والأبطال الذين سقطوا فيها، الأبطال المغمورين الـذين دوخـوا الإستعمار الفرنسي بوسائلهم البدائية متغلبين علـى الـدبابات والقنابـل، وكيف كان أحدهم يفتح دكانه في النهار ويتنكب بندقيته في الليـل يقـدم العون للثورة، وحدثها عن روعة نضال الشعب السوري عام 1945 في طلب الاستقلال، وحدثها عن التحاقه بجيش الانقاذ في معركة فلـسطين وعن أخيه الملازم الشاب الذي قتل في معركة قرب القدس، ثـم أردف بايمان وحماس:

ان شعب سوريا لايقهر! انه شعب ثوري منذ وجد. ولكن هذا الشعب الذي يضحي هو آخر من يكافأ على تضحياته. ان الجهاز نفسه الذي كان

يعمل زمن فرنسا ويصوب بنادقه الى صدور أبناء الشعب، عاد بمجموعه للعمل زمن الحكومة الوطنية. لقد نبعت البطولات الكاذبة، وعلق الضباط الذين لم يغبروا أقدامهم بدخول معركة على صـدورهم الأوسـمة، أمـا المخلصون الشرفاء فلقد كان يضيق عليهم الخناق ويبعدون عن المراكز الحساسة. وتلا هذا الإنقلابات العسكرية والديكتاتوريات، ولكن الـشعب السوري نفخها فانهارت كما ينهار الثلج من على رؤوس الصنوبر عنـد هبة ريح. ان شيئا واحدا يمكن أن يصلح أمر سوريا، حكما شعبيا راسخا كالجبال يطلق جميع امكانياتها.

لم تكن مها حتى تلك اللحظة، بالرغم من بصيرتها النفـاذة وتوقهـا للحقيقة والعدالة والحرية تفهم الطاقة الثورية للشعب. كان الـشعب فـي ذهنها كلمة غامضة. أرضا رملية تنزلق تحت أقدام من يستند اليها، برادة حديد تنجذب لمغناطيسية من يملك التأثير فيها. كيف يحكم الشعب علـى الأمور دون ثقافة؟ دون تمييز ودون وعي. لقد كانت تظن بأن الثورة تقع على كاهل أفراد واعين ممتازين من أبناء الشعب يصلون الـى الحكـم ويعملون لصالح جميع الفئات المتناقضة اجتماعيا، ويجدون نقطة التوازن بينها ويرفعون الأعباء عن الطبقة الكادحة. أي كانت باختصار لا تجـد غضاضة في دكتاتورية الفرد اذا كانت لصالح الشعب.

قال لها بلهجة غاضبة:

-أية ديكتاتورية عدا ديكتاتورية الشعب لا يمكن لها أن تكـون فـي صالح الشعب. ليس هناك من رجل شريف ولا عشرة ولا مائة في الحكم يمكنهم أن يفعلوا شيئا في نظام فاسد. انهم يفيقون ليجدوا أنفـسهم خـدما طيعين لكل القوى الرجعية، للإحتكاريين والإقطـاعيين والرأسـماليين، وحتى للإستعمار ضد القوى التقدمية وضد أبناء الشعب.

ولمحها بابتسامة ساخرة وأضاف:

-انك تحتاجين الى تنظيم جديد في مفاهيمك الفكرية. عندك رواسب كبيرة من أفكار البرجوازية الصغيرة الإصلاحية.

وأحست مها بشيء كوخز الإبر في بصيلات شعرها. لقـد أهانهـا وجرحها في أعمق ما تعتز به. كانت تثق بنفسها ثقة عمياء، وتحسب أنها واضحة نيرة التفكير، ولا يمكن أن تخطئ الصواب. ولم تنبس بحـرف وراحت تتأمل الطريق بشبه كآبة خرساء ولم تلبث أن سمعت ضـحكته وأحست بذراعه تطوق خصرها.

-لا تزعلي! ان الانسان لا يصل الى المفهوم الصحيح بسرعة. انـه لم يخلق عالما ولا فيلسوفا.

-وأردف وهو يعود الى قيادة السيارة بيديه وعيناه على الطريق:

-أنا نفسي تعثرت بكثير من الأخطاء حتى عهد قريب، حتى لسعتني التجربة بسياط الديكتاتورية في سجن المزة.

-متى كان ذلك ؟

-زمن الشيشكلي. لاأعرف كيف يملك هؤلاء الناس الجرأة والوقاحة ليتصدروا الأمة، ويعطلوا جميع قواها العاقلة. ولكن شعب سوريا لم يفقد إباءه وكبرياءه، ولم يتركه يصول ويجول طويلا. شاهدته ذات يوم فـي مقهى في باريس وقد تعتعه السكر وهو يـشتم رواد المقهـى لأنهـم لا يصدقون أنه كان ديكتاتورا على سوريا، والباريسيون يضحكون عليـه، فذهبت به الى فندقه إشفاقا أن يقال عن سوريا بأنها حكمهـا مثـل هـذا الرجل وأرضخ شعبها. يجب أن تدرسي يامها وترفعي من مستوى ثقافتك السياسية، فلن يغنيك ذكاؤك ولا ملاحظتك ولا حدسك عن الدرس شيئا.

فقالت مها وقد انتعشت روحها قليلا:

-سأدرس. انني لا أمل من الدرس. أريد جاهـدة أن أعـرف كـل المشاكل التي تعترض طريق التقدم الانساني، وطريق الـسلام. فابتـسم وقال:

-أدرسي الاشتراكية العلمية إنها ستجيبك على كل الأسئلة التي تدور بفكرك.

كانت مها قد طالعت بعض الكتب الاشتراكية، وكانت تلك المطالعـة تفتح عينيها وتغني أفكارها، الاّ أنها مع ذلك كانت متأثرة الى حـد مـا بالدعايات المضللة. وكان أكثر ما يجفل فكرها ويضعف قناعتهـا هـو التوفيق بين الفكرة الاشتراكية كفكرة أممية وبين القضية الوطنية الملحة، فاستوضحته عن هذا الأمر فقال:

-ان الإشتراكية تجيبك أيضا عن هذا السؤال.

وأخذ يشرح لها بوضوح وثقة واطمئنـان، وجلـست قربـه علـى الحشيش النامي عند ضفة جدول كتلميذة نجيبة تصغي بكل جوارحها الى أستاذها الذي تعجب به. أكان من الممكن أن لا تقتنع؟ كم كانت بحاجـة الى رجل غزير المعرفة، ثاقب الذهن، منطقي التفكير، لا دجل في حديثه ولا وهم، ولا غموض!.

انتهى التصحيح، وكانت المدرسات قـد تـأخرن قلـيلا ليـشاهدن المعرض، ثم تهيأن للعودة كل جماعة الى بلدها. وكان البعض يتـأخرن للنزول عند أقاربهن. كانت منازل دمشق غاصة بالضيوف من أطـراف البلاد بعد أن طفحت الفنادق بنزلائها، ولم تستطع مها أن تجـد لـسحر مكانا في منزل عمتها، اذ أن أخاها مراد عاد أيضا من اللاذقية لـبعض شؤونه ولمشاهدة المعرض مقدرا عودة أختيه مع المدرسات.

لقيت مراد في الطريق فقال لها:

-سنسافر غدا.

وصمتت مها، فغيظ مراد على عادة الإخوة وقال:

-ما بك؟ انك تفقدين الانسان أعصابه.

والتفت الى سحر وأضاف:

-أنظري اليها!. انها كالسكرى. تكلمينها فلا ترد وتسير في الطريق وكأنها لا ترى الناس ولا السيارات القادمة من المنعطف.. وكـان لديـه المبرر لهذا القول، فلقد قطعت شارعا دون أن تنتبه الى سيارة المنعطف، واصطدمت بأحد المارة وهي تمشي شاردة الفكر، أو بالأحرى وهي في تركيز عال لأفكارها، يفقدها الإنتباه الى ما حولها، وقاطعته دون التعليق على ماقال:

-إذهب بمفردك. أريد أن أبقى هنا بضعة أيـام أخـرى وأسـتعيد جنسيتي السورية.

-لماذا؟ أي شيء طلع برأسك الآن!

-لا شيء. إنها تفتح أمامي آفاقا جديدة.

-ولماذا لم تفكري بالأمر منذ قدمنا؟ انني لاأستطيع البقاء أكثر فلقـد استضافت عمتك ضيوف جدد ولم يعد بقائي مناسبا.

-سافر أنت. انني أستطيع تدبر أمري أنا وسحر فقد دعتنا صـديقتي مديحة وسألبي دعوتها، فلا يشغل بالك علينا.

-أجّلي هذا الأمر. لا أستطيع السفر بدونك.

-لماذا؟ هل أنا بحاجة الى حرس؟

-انني مسؤول عنك وعن أختك، ولا أترككما وحدكما وأسافر.

-انني أكبر منك سنا ولست بحاجة لحماية أحد.

-انك فتاة.

لا تكن متحجرا! لقد ألحت علي صـديقتي مديحـة أن أنـزل فـي ضيافتها. ان زوجها مسافر ومنزلها متسع. وهذه فرصـة لـي لأغيـر جنسيتي. فحين أتخرج في العام المقبل من جامعة لندن أعـين كـسورية وليس كفلسطينية بتعاقد.

ولكن مراد لم يقتنع بأن هذه القضية ملحة، وأصر على سفرها، وقال لها وهو يتركها متجهم الوجه:

-سأقطع بطاقات السفر على كل حال.

وتركته مها يذهب دون أن تطلعه بأنها خطبت وعلى وشك الـزواج وأنها بحاجة لاستعادة جنسيتها وترتيب أمورها. بل لم تكـن ترغـب أن تقحمه في أمرها وتبدأ معه جدالا لا ينتهي فيما يجب عليها أن تفعله، وما لايجب عليها أن تفعله، وغمغمت مغيظة:

-ما أحمق الإخوة وهم يجعلون أنفسهم أوصياء وحراسـا أخلاقيـين علينا، ولو كانوا أصغر سنا، ولو كانوا أقل تجربة ومعرفة بالحياة!

-لماذا لم تخبريه بالأمر؟

-لست أريد منه شيئا سوى أن يتركني ويذهب. انني أعرف مكـامن سعادتي، وأعرف كيف أختار رجلي. ولن أترك الأمر للمصادفة. هـذه قصة حياتي ولن أجعل أحدا يمارس سلطته علي. انني لاأريد أن أبـرح دمشق ولن أبرحها!.